فرعون موسى

لم يكن مصرياً

obeikandl.com

obeikandl.com

ظل بنو إسرائيل يعيشون على أرض مصر، وكان (يوسف) قد ساهم في رفع شأنهم بين القبائل البدوية [الهكسوسية] الأخرى. فعندما جاء (يعقوب) [إسرائيل] وبنوه مصر، أوقفهم (يوسف) أمام الملك الذي سألهم : " ما صناعتكم ؟ فقالوا لفرعون عبيدك رعاة غنم نحن وأباؤنا جميعاً "[١].

" فكلم فرعون (يوسف) قائلاً أبوك وأخوتك جاءوا إليك. أرض مصر قدامك. في أفضل الأرض أسكن أباك وأخوتك "[٢].

" فأسكن (يوسف) أباه وأخوته وأعطاهم ملكاً في أرض مصر في أفضل الأرض..." [٣].

وتمر أيامٌ وأعوام.. ويتبدلُ الحال.. فقد : " قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف (يوسف). فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعبٌ أكثر وأعظم منا"[٤].

ثم كان أن قام هذا الملك "الجديد" باضطهاد بني إسرائيل :

(إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) [٥].

أما السبب الذي من أجله قام هذا الملك باضطهاد بني إسرائيل ؛ فيورده (ابن كثير) في كتابه "قصص الأنبياء" :

" وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرون عن (إبراهيم) عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلامٌ يكون هلاك ملك مصر على يديه ". ولم يكن هذا الغلام سوى (موسى).

أما التوراة فتجري سبباً آخر على لسان الملك نفسه : " لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حربٌ أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض "[٦].

وهكذا سام الفرعون وقومه بني إسرائيل العذاب : " ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية.. "[٧].

وتمضي التوراة لتذكر شيئاً من تفاصيل هذه الفترة : " وكلم ملك مصر قابلتي العبرانيات "[٨]، واتفق معهما على قتل ذكور بني إسرائيل والإبقاء على حياة بناتهم : " إن كان ابناً فاقتلاه وإن كان بنتاً فتحيا "[٩].

إلا أن هاتين القابلتين خدعتا الفرعون، وأوحيتا إليه أن النساء العبرانيات لسن بحاجة إلى مساعدة المولدات، فالمرأة العبرية تلد قبل وصول القابلة. وفي هذه

الأثناء وفي هذه الظروف : " ذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي "[١٠].
" فحبلت المرأة وولدت إبناً.. "[١١].
وكان هذا الإبن هو : (موسى) بن (عمران) بن (قاهث) بن (عازر) بن (لاوي) بن (يعقوب).
وكان بطبيعة الحال أن تخشى أم (موسى) بطش الفرعون، فأوحى إليها الله : (أن أرضعيه فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني) [١٢]. وهذا ما فعلته أم (موسى).
تكمل التوراة الرواية : " فنزلت إبنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر . فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته "[١٣].
" ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبيٌ يبكي. فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين "[١٤].
ويذكر القرآن "إبنة الفرعون" هذه بأنها "زوجته".
(وقالت إمرأة فرعون قرة عينٍ لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) [١٥].
وتقول التوراة : " ولما كبر الولد جاءت به إلى إبنة فرعون فصار لها ابناً. ودعت اسمه (موسى) وقالت إني انتشلته من الماء"[١٦].

كان هذا هو الفصل الأول من قصة (موسى)، الذي نتوقف عنده لنسجل التالي :
أولاً : إن الملك الجديد حين قال : " هو ذا بنو إسرائيل أكثر وأعظم منا " لم يكن يخاطب الشعب المصري بكل تأكيد، فهل قال مؤرخٌ واحدٌ أن بني إسرائيل حتى في أزهى عصورهم وبعد تأسيس دولتهم في فلسطين كانوا أكثر وأعظم من المصريين ؟! ناهيك عن هذه القبيلة الرعوية القليلة الشأن التي كانت تعيش حينذاك في أرض مصر.
يقول (جان بوتيرو) في كتابه "ولادة إله، التوراة والمؤرخ" : "إن الشعب الإسرائيلي لم يكن سوى شعب مجهري (يكاد لا يُرى إلا بالمجهر) قياساً على تلك الشعوب العملاقة التي أشادت حضارات ضخمة (..) كالبابليين والأشوريين والمصريين ".

أما (جيمس هنري برستيد) فيقول عن هذا الشعب [الإسرائيلي] في أمجد فترات تاريخه : ".. شعبٌ خامل الذكر سياسياً منزوٍ في الركن الجنوبي من البحر المتوسط. فإن هذا الشعب لم يقم له نظامٌ قومي خاص به إلا منذ العشر أو العشرين سنة السابقة لعام (١٠٠٠) قبل الميلاد، ولم يبق أمةً موحدة إلا نحو قرن واحد على أكبر تقدير "[١٧].

أما (ديورانت) فيقول عن هذه الفترة التاريخية : " هي قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج "[١٨].

وهكذا يتضح أن هذا الملك الجديد لم يكن يخاطب شعبَ مصر، بل جماعةً من الناس أو طائفة منهم، أو قبيلة من قبائل هؤلاء الهكسوس، الذين كانوا لا يزالون يعيشون – حينذاك – على أرض مصر.

ثانياً : ابنة هذا الملك (في التوراة) أو زوجته (في القرآن) – حين عثرت على الطفل (موسى) في السفط – أدركت على الفور أن الطفل الرضيع إسرائيلي. فيا ترى ما هي تلك العلامة التي رأتها هذه الأميرة فأدركت على الفور أن الطفل الرضيع إسرائيلي ؟.

هي علامة بالتأكيد لم تستطع أم (موسى) أن تخفيها أو تمحوها مع أنها كانت – يقيناً – حريصة كل الحرص على إخفاء أو محو أية إشارة تدل على نسب (موسى) إلى العبرانيين..

نقول : على الأرجح أن (موسى) كان مختوناً، وهي عادة دينية اعتادها اليهود. فلو كانت هذه السيدة "مصرية" ما كان يلفت نظرَها ختانُ الطفل، فالختانُ عادةٌ مصرية أصيلة، وكان المصريون يمارسونها منذ بضعة آلاف من السنين قبل الميلاد.

وقد ذكر (هرودوت) أن المصريين عرفوا الختان منذ أقدم العصور، بل ويشهد أيضاً أن هذه العادة انتقلت من مصر إلى البلاد الأخرى. وفي مقبرة بـ(سقارة) توجد لوحة تسجل عملية الختان، ويرجع تاريخها إلى الأسرة السادسة أي حوالي ٢٣٠٠ قبل الميلاد[١٩].

هو أمرٌ إذن مألوف، كما هو حتى اليوم، لا يلفت نظر مصري أو مصرية، ولكنه لفت نظر هذه الأميرة، لأنها كانت تنتمي إلى البدو الآسيويين، الذين حكموا مصر في غفلة من الزمن، وعُرفوا باسم الهكسوس. وهذا أيضاً ما تؤيده المراجع العربية، إذ يذكر (ابن كثير) هذه الأميرة باسم (آسية)، ويقول أنها

كانت بنت (مزاحم) بنت (عبيد) بن (الريان)، الذي كان فرعون مصر في زمن (يوسف) بن (يعقوب).
وهكذا يثبت أن أقرب الناس إلى "الملك الجديد" لم تكن مصرية، بل هي حفيدة الملك الهكسوسي الذي حكم مصر في زمن (يوسف).
ثالثاً : إن هذه الأميرة "الهكسوسية" هي التي أطلقت على الطفل اسم (موسى)، وقد استوحت هذه التسمية من لغتها "السامية"، ثم قدمت تفسيراً لغوياً لذلك : " وقالت إني انتشلته من الماء "، وهذا دليل آخر على أن المرأة لم تكن مصرية، بل آسيوية الأصل والانتماء حضارياً ولغوياً.
ومما يؤكد أن حاكمَ مصر – حينذاك – وقومَه جميعاً كانوا آسيويين ؛ أن مساعد هذا الحاكم أو نائبه أو وزيره كان يُدعى (هامان)، ومن المعروف أن هذا الاسم آسيوي وليس مصرياً.
رابعاً : قد ثبت تاريخياً وأثرياً ومقارنة مع بعض نصوص التوراة؛ أن بني إسرائيل دخلوا مصر مع غزو الهكسوس لها بعد انتشار المجاعة كما أسلفت. وقد حدد المؤرخون ذلك بعام ١٧٣٠ قبل الميلاد، كما حُدد تاريخ خروج الهكسوس من مصر بعام ١٥٨٠ ق. م، وهكذا تكون فترة حكم الهكسوس لمصر قد دامت زهاء ١٥٠ عاماً، فإذا عدنا إلى نسب (موسى) وعددنا الأجيال بينه وبين جده الأكبر (يعقوب)، لوجدناها أربعة أجيال، وهي نفس عدد الأجيال لحكام مصر الهكسوس، كما ذكر (المسعودي) في كتابه "مروج الذهب"، إذ يقول بأن فرعون (موسى) كان الرابع من فراعنة مصر، ولو جاز لنا إتمام عبارة هذا المؤرخ العربي فقلنا إن فرعون (موسى) " كان الرابع من فراعنة مصر "الأجانب" أو "الهكسوس" "، لاستقام المعنى تماماً وصار ذلك برهاناً وحجة على كل ما ذهبنا إليه.

وإذا عرفنا أن (لاوي) جد (عمران) [والد موسى] هو أخو (يوسف) النبي، أول من دخل مصر من بني إسرائيل، لكان الفرق الزمني بين (يوسف) و(موسى) ما يعادل ثلاثة أجيال فقط، وهي فترة زمنية في حدود الستين سنة.
وهكذا تكون أحداثُ قصةِ سيدنا (موسى) – منذ ميلاده وحتى خروجه من مصر – قد وقعت أثناء حكم الهكسوس لمصر، وهكذا يكون حاكمُ مصر أيام (موسى) هكسوسياً، فإذا إحتج البعضُ فقال إن الله حدد ملك مصر بلفظ "فرعون" وهو لقب مصري صميم كان يُطلق فقط على ملوكها ؛ قلنا إن هناك حكاماً أجانب كثيرين حكموا مصر فنسبوا أنفسهم إليها، واعتنقوا دينها وحملوا ألقاب ملوكها

[الفراعنة]، وكان من بينهم هؤلاء الحكام الهكسوس أنفسهم. وفي هذا السياق نستطيع أن نقول أن كاتب التوراة قد تعمد إغفال اسم الملك الذي كان يحكم مصر حينذاك، وهو الذي كان حريصاً على ذكر اسم كاهن في بلدة صغيرة خارج حدود مصر، وهو (يثرون) كاهن (مدين)، وهو ما فعلته التوراة في قصة (يوسف) أيضاً ؛ حين ذكرت اسم رئيس الشرطة واسم كاهن مدينة (أون) أو اسم ابنته، ولم تذكر اسم الحاكم نفسه.

وإن كان القرآن أيضاً لم يذكر الفرعون بالاسم، إلا أن ذلك يتسق مع الرواية القرآنية كلها – وعلى نقيض التوراة – فالقرآن لم يذكر قط أن فرعون (موسى) كان مصرياً. ولم يخبرنا القرآن قط أن عشيرة هذا الفرعون كانوا مصريين، فهم دائماً "القوم" أو "الملأ"، حتى حين يحدد القرآن شخصاً بعينه هو (قارون)، قال أنه كان من قوم (موسى)، أي أنه لم يكن مصرياً[٢٠].

ولكن القرآن أشار إلى فرعون (موسى) هذا بإشارة واضحة، فوصفه بأنه " فرعون ذو الأوتاد "[٢١]. وهو وصفٌ يتفق مع ما ذهبنا إليه بأن حاكمَ مصر في زمن (موسى) لم يكن مصرياً، بل كان هكسوسياً بدوياً، وهل هناك اقترانٌ وتلازم أكثر من اقتران وتلازم الوتد بـ"البدو" ؟، فإذا ذكرنا الوتد ذكرنا البدوي، وإذا قلنا ملك [فرعون] ذا أوتاد، قلنا ملك [فرعون] بدوي، و"الملك البدوي" هو المرادف العربي للتسمية المصرية [القديمة] هكسوس، أي الحكام البدو.

هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى كان للوتد عند المصريين [القدامى] دلالة هامة، إذ كان المصريون يعتقدون أن "ست" – رب الصحراء – قد شُد وثاقه إلى "وتد" حتى لا يهاجم أخاه "أوزيريس"[٢٢] رب الخصب والنماء، وكان "ست" [صاحب الوتد] هو رب الهكسوس وبني إسرائيل [اليهود].

وهكذا تكون الإشارة القرآنية إلى هذا الحاكم [فرعون (موسى)] إشارةً جامعة مانعة، إذ احتوت المعنى الدنيوي للوتد، كذلك المعنى الديني له [عند المصريين] بالإضافة إلى إتفاقها (لغوياً) مع اللفظ المصري [القديم] : "هكسوس".

وكان "ست" هو إبليس الحضارة المصرية [القديمة]، فـ"ست" هو ستن أو (Satan) في اللغات الأوروبية [حتى اليوم]، وهو شتن أو شطن أو شيطان.

وكان المسيح يدرك تماماً ما ذهب إليه عندما قال لليهود :

" أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب "[٢٣].

إبليس أو الشيطان "ست" كان قتّالاً للناس من البدء حقاً، فهو أول من قتل في تاريخ الإنسانية كما قالت بذلك الحضارة المصرية، فقد قتل أخاه الطيب "أوزيريس"، ثم احتل مكانه، ولكنه لم يثبت في الحق – على حد قول المسيح – إذ سرعان ما أطاح به "حورس" ابن "أوزيريس".

ويعلق د.(عبد المحسن الخشاب) على ما جاء على لسان المسيح، فيقول : " هكذا كان "ست"، أي الشيطان عند المصريين، وكان العبرانيون من عبدته المتعصبين، فقد اختاروه الإله لهم – على خلاف غالبية المصريين – مثلهم الأعلى، ثم إنهم بسبب ما رآه وعرفه المصريون فيهم من خلق وطباع، اختاروه أباً للعبرانيين منذ وجودهم بمصر "[٢٤]. وهو ما يؤكده المؤرخ الإغريقي (بلوتارخ) حين روى أن "ست" هرب من وجه "حورس" [ابن "أوزيريس"]، وبعد نجاته ولد له ابنان هما "هورسوليمون" و"ياهودايس"، وهما آباء العبرانيين[٢٥].

ولننتقل الآن إلى فصلٍ تالٍ من قصة سيدنا (موسى) في مصر، وهي فترةٌ يحددها القرآن الكريم كالتالي : (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً)[٢٦]، أما التوراة فتحكي عن هذه المرحلة فتقول : " وحدث في تلك الأيام لما كبر (موسى) أنه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم. فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من أخوته، فإلتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحدُ فقتل المصري وطمره في الرمل "[٢٧].

ثم : " خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان"[٢٨].

ويحدد القرآن أحد هذين المتخاصمين بأنه هو نفسه الذي من أجله قتل (موسى) رجلاً آخر بالأمس : (فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه)[٢٩].

" فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك. فقال من جعلك رئيساً وقاضياً علينا، أمفتكرٌ أنت بقتلي كما قتلت المصري "[٣٠].

وشاع خبرُ قتل (موسى) للرجل حتى وصل مسامع الفرعون : "فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل (موسى) "[٣١].

(وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك..) [٣٢].

فلم يجد (موسى) بداً من الفرار : " فهرب (موسى) من وجه فرعون وسكن في أرض (مديان) وجلس عند البئر "[٣٣].

وعند هذا البئر قابل (موسى) ابنة كاهن (مدين)، التي تزوجها فيما بعد. وكان قد ساعدها وأخواتها على السقي، وكذلك سقى لهن أغنامهن. فلما عادت البنات إلى أبيهن : " فقلن رجلٌ مصري أنقذنا من أيدي الرعاة وإنه استقى لنا أيضاً وسقى الغنم "[٣٤]. وينتهي الأمر بزواج (موسى) بـ(صفورة)، وإقامته معها هناك حيناً من الزمن يقدره البعض بعشر سنوات[٣٥]. وأثناء إقامة (موسى) بـ(مدين) كان الفرعون الذي يطلب دمه قد مات. ويبدو أن ذلك كان السبب في عودة (موسى) إلى مصر : " وقال الرب لـ(موسى) في (مديان) اذهب ارجع إلى مصر. لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك"[٣٦].

كما يفهم من عبارة التوراة السابقة، فإن "جميع القوم" الذين كانوا يلاحقون (موسى) قد ماتوا، فلا يمكن أن يكون المعنى هنا مقصوداً به شعب مصر – أو الدولة المصرية – بل تقودنا عبارة التوراة إلى القول أن "جميع القوم" لم يكونوا سوى قبيلة أو عشيرة هكسوسية كانت تحكم مصر حينذاك، وهلكت أو تفرق شملها أثناء صراعها مع قبيلة أخرى.

وكان أن أخذ (موسى) أهله ورحل، وأثناء ذلك إذا به يلمح ناراً تتأجج في جانب "الطور"[٣٧].

ويذكر القرآن هذا الحدث : (فلما أتاها نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين)[٣٨].

أما "الرب" فحذره : " فقال لا تقترب إلى ها هنا. اخلع حذاءك من رجليك. لأن الموضع الذي أنت واقفٌ عليه أرضٌ مقدسة. ثم قال أنا إله أبيك إله (إبراهيم) وإله (إسحق) وإله (يعقوب) "[٣٩]. وبعد ذلك كُلف (موسى) بالرسالة إلى الفرعون :

(اذهب إلى فرعون إنه طغى. قال رب اشرح لي صدري. ويسر لي أمري. واحلل عقدةً من لساني. يفقهوا قولي) [٤٠].

فلبى الله طلب (موسى)، وعضده بأخيه (هارون) ليكون لسانه لدن الفرعون : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) [٤١].

(فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل) [٤٢].
ومضى (موسى) [عليه السلام] وأخوه (هارون) إلى الملك، فلما أبلغاه الرسالة وطلبا منه الذهاب ببني إسرائيل، اندهش الملك ولام (موسى)، وقال له : (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) [٤٣].

ثم دار جدلٌ بين الرسول والحاكم.. ولكن قبل أن نصل إلى هذه المرحلة نتوقف قليلاً لنسجل النقاط التالية :

أولاً : كان النبي (يوسف) قد تربى وتعلم في مصر وتخلق بأخلاق أهلها، وكذلك كان (موسى)، بل إنه زاد على (يوسف) بأنه وُلد على أرض مصر، أو كما يقول (فرويد) في كتابه "(موسى) والتوحيد" : " كان (موسى) مصرياً أولاً ثم كان كاهناً عظيماً عليماً بدقائق الأسرار والطقوس المصرية ".
وهو ما أكدته التوراة نفسها على لسان بنات شيخ (مدين)، حين أخبرنه عن (موسى) فقلن : " رجلٌ مصري ".
ثانياً : على الرغم من ذلك يحرصُ كاتب التوراة على إثبات وتأكيد "عداءً" بين (موسى) والمصريين، ففي الحادثة التي انتصر فيها (موسى) لأحد طرفيها على الآخر، نجد التوراة تحدد أحدهما بأنه مصري، وهو الذي قتله (موسى) : " فقتل المصري". وفي هذه الواقعة نجد القرآن – كعهده – يحدد هذين الخصمين بقوله : (هذا من شيعته وهذا من عدوه) [٤٤]. وهو تعريف أقرب إلى تحديد الهوية السياسية أو الدينية، ولا تشير من قريب أو بعيد إلى هذه العصبية القبلية العنصرية كما أرادها كاتب التوراة.

وإذا عدنا إلى بلاط الحاكم رأينا (موسى) وأخاه هناك، وسمعنا حواراً دار بينهما وبين الفرعون، على النحو التالي :

- (فمن ربكما يا موسى).
- (ربنا الذي أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى).
- (فما بال القرون الأولى).
- (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من

نباتٍ شتى. كلوا وارعوا أنعامكم إنّ في ذلك لآياتٍ لأولي النُهى. منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى) [٤٥].

ولنقرأ معاً هذا النص المصري [القديم] : " أنت ربُ السماءِ و ربُ الأرض، خالقُ كائنات السماء وخالق الكائنات على الأرض. أنت الإلهُ الأوحد الذي خلق لأول مرة، الذي أنشأ البلاد الذي أوجد "نون" وخلق النيل، الذي أوجد الماء وأحيا كل ما يعيش بها، الذي شيد الجبالَ وخلق البشر والأنعام"[٤٦].

هذا النص المصري السابق وغيره – قبله وبعده – الكثير، كان لا يعرفها هذا الحاكم، لأنه لم يكن منتمياً لهذه الحضارة، ولو كان الفرعون المزعوم مصرياً لما رد على (موسى) الرد "الغريب" التالي، الذي يناقض تماماً إيمان المصريين بالإله الخالق لكل شيء ولكل البشر بما فيهم الحاكم نفسه : (ما علمت لكم من إلهٍ غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً) [٤٧].

في هذه الآية يطلب فرعون من (هامان) أن يبني له صرحاً، وقبل أن يشرع في ذلك.. عليه أن يجهز مادة البناء (الطين) بأن يوقد عليه ناراً، أي أن يصنع له صرحاً من الطين المحروق، وهو أسلوب بناء لم يعرفه المصريون الذين – على مر عصورهم التاريخية – كانوا يصطنعون الطوب " اللبن" من الطين، دون أن يحرقوه[٤٨].

وفي الحوار بين (موسى) وفرعون، يؤكد (موسى) على مبدأ عقائدي راسخ وهو الإيمان باليوم الأخر، فيقول : (.. إن في ذلك لآياتٍ لأولي النُهى. منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى).

إنه مبدأ أصيل في عقيدة (موسى)، وآمن به من قبله ومن بعده أنبياء الله المرسلون : إنه مبدأ البعث والحساب الذي أكد (موسى) – نفسه - جهل هذا الفرعون به عندما قال : (إني عذت بربي وربكم من كل متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب) [٤٩]. وهو ما يؤكده القرآن مرةً أخرى في سورة القصص : (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون)[٥٠].

وهو نفسه المبدأ الذي آمن به (يوسف)، بعد أن جاء مصر وأقام بها، فأعلن : (إني تركت ملة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون).

وكانت رسالة (يوسف) هي رسالة (موسى) إلى "نفس القوم"، أي حكام مصر البدو "الهكسوس". وهذا ما يؤكده "مؤمن آل فرعون"، وهو يُذكر هذا الحاكم الأجنبي وآله برسالة (يوسف) إلى أسلافه وجدوده، فيقول : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به) [٥١]. وكما آمن (موسى) و(يوسف) بالآخرة والبعث والحساب، آمن بها المصريون من قبل هذين الرسولين الكريمين ومن بعدهما أيضاً.

فقد دلت أقدمُ الآثار في مصر على إيمان المصريين الأوائل بالبعث بعد الموت، فقد تم العثور على مقابر يعود تاريخُها إلى العصر الحجري الحديث، أي ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وقد عُثر في إحدى هذه المقابر في قرية (مرمدة بني سلامة) على بعض الحبوب بالقرب من القاهرة.

وفي منطقة (طرخان) عُثر على بعض الأواني الفخارية. وفي (حلوان) عُثر على زهور في بعض المقابر. وفي (البداري) بـ(أسيوط) اشتملت بعض المقابر على لوحات عليها بقايا ألوان كانت تستخدم في الزينة، وهناك أيضاً عُثر على جثة طفل ملفوفة بالجلود ومغطاة بالحصير، ومعه سوار من العاج وبعض المحار وإناءان.

وعُثر أيضاً على مقبرة لإمرأةٍ عجوز، لُف جثمانُها بسبعِ أو ثماني طبقات من الجلد، وبجوارها عقدُ محارٍ وإناءان. ووُجد في مقبرة أخرى لوحة من الألباستر، بها أثار ألوان وملعقة من العاج وخلخلان من العاج أيضاً.

هكذا إذن قبل سبعة آلاف سنة كان المصريون قد آمنوا بالبعث بعد الموت، فقد اهتموا بحفظ جثث ذويهم من البلى والفناء، ووضعوا معهم بعض الأواني وأدوات الزينة وغيرها، كزادٍ لهم في الحياة الآخرة.

وينتقل المبدأ الإيماني من جيلٍ إلى آخر.

فمن العصر النحاسي، الذي يُؤرخ له بالألف الرابعة قبل الميلاد، تم العثور على مقابر في (هليوبوليس) [حي المطرية بالقاهرة] بها جثثٌ في حالة حفظ جيدة، وعُثر في هذه المقابر كذلك على أوانٍ فخارية ولوحات.

وقد تكرر هذا الأمرُ في منطقة جزرة بـ(الفيوم) وفي (البداري) و(المحاسنة) بـ(أسيوط)[٥٢].

وإذا ما دخلنا العصور التاريخية وعصر الأسرات، لذهلنا لعدد المقابر العظيم، ولمتانة بنائها وبهاء زخرفها، وما احتوته من أثاثٍ وحلي وكل متطلبات الحياة،

وذلك بطول البلاد وعرضها، وهو ما يحتاج إلى مجلداتٍ كثيرة لذكر بعض تفاصيلها.

ونضيف إلى ذلك أن الإيمان بالآخرة والبعث لم يكن منتشراً في غرب آسيا، تلك المنطقة التي انحدر منها الهكسوس وبنو إسرائيل، وقد تأصل عدم الإيمان بالآخرة بين بني إسرائيل واليهود أنفسهم، فهناك فرق يهودية لا تؤمن – إلى الآن – بالبعث والخلود.

يقول (ديورانت) : " ولم تدر فكرة البعث في خُلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض، ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس أو لعلهم أخذوا شيئاً عن المصريين"(٥٣).

وقد ثبت – كما سيتضح فيما بعد – أن الفرس أنفسهم أخذوا فكرةَ البعث عن المصريين. حتى أن ملوكَ الفرس كانوا يزينون قصورهم بصور رب البعث المصري "أوزيريس"(٥٤).

ويقول د.(أحمد شلبي) : " والدارس للكتب الإسرائيلية يجدها تسير مع الفكر الذي أوضحناه آنفاً، فلم يرد شيء عن البعث واليوم الأخر، وإنما ورد بها حديث عن الأرض السُفلى والجب التي يهوي إليها العصاة ولا يعودون ".

ثم يضيف (شلبي) : " فالشعب اليهودي عند الباحثين اليهود قسمان، قسم عاش حياته الدنيا سعيداً، وهؤلاء يعدهم الفكر اليهودي قد حصلوا على الجانب المادي من رضا إلههم، أما القسم الآخر وهم الذين فقدوا هذا الجانب، فهؤلاء من حقهم أن يعودوا للحياة مرة أخرى لينالوا نصيبهم من المتعة أوالنعيم. وعلى العموم فإن فكرةَ البعث لم تجد أرضاً خصبة في عالم اليهود، وقد حاول بعض طائفة الفريسيين القول بها، ولكن هذه المحاولة لقيت معارضة شديدة، أما باقي الفرق اليهودية فلم تعرف عنها شيئاً"(٥٥).

ولننتقل الآن مع فرعون (موسى) إلى مرحلة أخرى، فقد انتهى الإثنان من حوارهما الذي احتدم، ووصلا إلى مرحلة التحدي، وكان "السحر" هو الفيصل في هذه المباراة المثيرة، التي شهدها بلاط الفرعون.

وتبدأ التوراة روايتها هكذا : " وكلم الرب (موسى) و(هارون) قائلاً. إذا كلمكما فرعون قائلاً هاتيا عجيبة تقول لـ(هارون) خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً. فدخل (موسى) و(هارون) إلى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب. طرح (هارون) عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً"(٥٦).

وكان لهذا العمل وقعه على الحضور في البلاد، وكما جاء بالقرآن : (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحرٌ عليم) [٥٧].
ونظر فرعون إلى معيته، وقد بلغت به الدهشة مداها، فسألهم عما عساه يفعل إزاء هذا التحدي، فجاء ردهم : (قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين. يأتوك بكل سحّارٍ عليم) [٥٨].

ولنا أن ندهش نحن أيضاً، كما دهش هذا الفرعون، ولكن لسببٍ آخر، وهو خلو بلاط حاكم مصر من السحرة. فقد عرف المصريون السحرَ منذ أقدم العصور، فهم قد آمنوا بوجود قوى ذات قدرةٍ على الإتيان بالأفعال الخارقة. وكانت هذه القوى السحرية تُعرف باسم "حكا" أو "حقا"، وقد تمتع "حقا" بمكانة سامية، حتى إننا نراه يقف جنباً إلى جنب مع أعظم أرباب مصر، حتى أنه نازع واحداً من أقدمهم، وقد حاول أن يبرهن على مكانته وسبقه في الوجود، فقال : " إني هذا الذي أحيا التاسوع الإلهي، إني هذا الذي يفعل ما يشاء، أبو الأرباب، كلُ شيءٍ ملكٌ لي، قبل أن تنشأوا أنتم أيها الأرباب، التي جاءت بعدي، إني أنا السحرُ "[٥٩].

وقد كان "حقا" موجوداً منذ بدء الخليقة، فقد كان تلك القوى العظيمة التي إستخدمها الإله في الخلق. وقد تمتعت الأرباب بامتلاك هذه القوى السحرية، وكذلك الملوك وبعض الناس الذين نسميهم بالسحرة، أو هؤلاء الذين كانوا يأتون أعمال لا يقوى عليها سوى الأرباب، وقد عرفت مصر طبقتين من السحرة، أولاهما :

من تسمح لهم الدولة بممارسة هذا العمل، وكانوا يتمتعون بمرتبة عالية، حتى أنه كان من بينهم أبناء الملوك والأمراء، مثل (أمنحتب) بن (حابو) وزير الملك (أمنحتب الثالث)، والملك (سيزوستريس) نفسه، و(خعموزا) ابن الملك الشهير (رمسيس الثاني). وكان هؤلاء ينتمون إلى طبقة الكهنة. وكانوا يدرسون السحر في المعابد، التي اشتملت مكتباتها على كتب السحر.

أما الطبقة الثانية من السحرة فكانوا ينتمون إلى الطبقات الشعبية، وكانت مهمتهم منحصرة في حماية الناس من الحيوانات المفترسة وغيرها من الكائنات الخطرة، وكان يتوجب عليهم الحصول على إذن رسمي لممارسة هذه الأعمال.

أما غير ذلك، مما نستطيع أن نسميه بالسحر الأسود، فكان ممنوعاً ومحرماً، ومن كان يعمل به يعتبر مجرماً، يُوقع عليه أشد العقاب الذي يصل إلى حد الإعدام.

ومن بين النفائس التي يحتفظ بها المتحف البريطاني بردية مصرية تحت رقم (٦٠٤) دُوّن عليها أسطورةٌ بعنوان "(سي أوزير) يقود أباه (..) في العالم الأخر وينتصر على السحرة الأحباش "، وتحكي هذه الأسطورة عن مجيء ساحر حبشي إلى مصر ليتحدى المصريين، فوقف أمام الفرعون وقال :" هل يوجد هنا من يستطيع قراءة هذه الرسالة أمام الفرعون، أي يتلو الرسالة دون أن يفتحها، فإذا تبين أنه لا يوجد كاتب جيد أو رجل عالم في مصر، يستطيع قراءتها دون فتحها، فإنني سوف أفضح مصر في وطني بلاد الزنج ".

وكان أن برز حفيد الملك المصري، وكان صبياً في الثانية عشرة من عمره، وكان يدعى (سي أوزير)، وقبل تحدي الساحر الحبشي.

ومن المصادفات أن تجري هذه المباراة في بلاط الفرعون، وفي يوم العيد أيضاً، مثلما حدث في قصة (موسى). وقد استطاع (سي أوزير) قراءة الرسالة المغلقة، التي كانت عبارة عن قصة دارت أحداثها قبل ١٥٠٠ عام من هذه المباراة. وتحكي أن حاكم بلاد الزنج – التي كانت تخضع للحكم المصري – كان يتنزه في حديقة، حين وصل إلى أسماعه حديث ثلاثة من السحرة، وهم ينفثون حقدهم على مصر. فقال أحدهم بأنه يستطيع – من خلال سحره – أن يجعل : " شعب مصر يقضي ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ لا يرى ضوءاً آخر غير ضوء مصابيح الزيت ".

وهو ما ترويه التوراة.. كواحدة من الأعاجيب التي أتى بها (موسى) :

" ثم قال الرب لـ(موسى) مد يدك نحو السماء ليكون ظلامٌ على أرض مصر. حتى يلمس الظلام. فمد (موسى) يده نحو السماء فكان ظلامٌ دامسٌ في كل أرض مصر ثلاثة أيام "[٦٠].

وقال أحد هؤلاء السحرة الثلاثة بأنه يستطيع أن يلقي سحره على مصر فيجعل : " البلاد تجدب ثلاث سنوات ". وهذا أيضاً نسمع صداه يتردد في التوراة التي تحكي أن الله سلط الجراد على مصر : ".. حتى لم يبق شيءٌ أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر "[٦١].

أما ثالث السحرة فقد لقى كلامه هوى حاكم بلاد الزنج، وكان عمله السحري يتلخص في إذلال الفرعون ملك مصر. فأمر حاكم بلاد الزنج هذا الساحر بأن يفعل ذلك. ولكن كبير سحرة الفرعون استطاع أن ينقذ مليكه، ويرد الصاع صاعين لحاكم بلاد الزنج، مما دفعه إلى تقريع الساحر، وأمره بتخليصه من

الورطة التي أوقعه فيها، فاضطر هذا الساحر للذهاب إلى مصر ليبارز كبير سحرة البلاد، ودارت معركة سحرية في بلاط الفرعون.
وقد جعل الساحر الزنجي النار تشب في البلاط، ولكن الساحر المصري جعل السماء تمطر فأطفأ النار.
ومثل ذلك ما جاء في التوراة : " فمد (موسى) عصاه نحو السماء. فأعطى الرب رعوداً وبرداً وجرت نارٌ على الأرض.."[٦٢].
وفي بلاط الفرعون تحكي الأسطورة المصرية أن الساحر الحبشي جعل سحابة كثيفة تغشى البلاط " فصار الرجل لا يرى أخاه أو رفيقه ".
وفي التوراة : " فمد (موسى) يده نحو السماء فكان ظلامٌ دامسٌ في كل أرض مصر ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه.. "[٦٣].
وفي النهاية انتصر الساحر المصري على غريمه الزنجي، الذي عفى الفرعون عنه شريطة ألا يدخل مصر لمدة ١٥٠٠ عام.
كان كل ما تقدم هو فحوى الرسالة، التي حملها الساحر الحبشي وجاء يتحدى أهل مصر أن يقرأها أحدهم وهي مغلقة، فكانت هذه القصة السابقة التي قرأها (سي أوزير)، والذي فجر مفاجأة في النهاية بأن هذا الساحر الحبشي هو نفسه الساحر الزنجي، وقد جاء مصر بعد ١٥٠٠ عام، ولم ينس حسده ضد مصر ولا هزيمته على أرضها.
ومن الأساطير المصرية التي حكت عن السحر أسطورة سُجلت على بردية تُعرف ببردية "وستكار"، ويعود تاريخها إلى العام ١٥٠٠ ق. م، وهي قصة كانت قد رويت في بلاط الملك (خوفو)، أي قبل ألف عام أخرى من تسجيلها أو نسخها على هذه البردية[٦٤]، وتروي الأسطورة عن مرور الملك (سنفرو) بحالة من السأم والملل، فلما استدعى الكاهن الأكبر سائلاً إياه النصيحة، اقترح عليه الأخير أن يجهز له نزهة في بحيرة قصره. فأعد قارب الملك تقوده عشرون عذراء فاتنة، وأثناء هذه النزهة سقطت قطعة حُلي من قائدة الفتيات، فاشتكت للملك، الذي استدعى الكاهن الأكبر وأخبره بما حدث، فما كان من الكاهن إلا أن شق البحيرة فجعلها نصفين، ووضع نصفها على النصف الأخر. فعثر على قطعة الحُلي، ثم أعاد ماء البحيرة مرة أخرى إلى حاله الأولى.
ومن المعروف أن السحرة المصريين كانوا يستخدمون "عصا" في أعمالهم. وكان للعصا بشكل عام أهميتها، فهي تدل على الزعامة أو القيادة والمكانة

العالية للممسك بها، حتى أنه تم العثور على مثل هذه العصا مدفونة بجوار أصحابها، مما يدل على علو شأنهم بين قومهم.

ولنعد الآن إلى بلاط الفرعون المزعوم، لنجد هذا الملك قد حشد السحرة "المصريين"، فلما جاءوه بادروه: (أئن لنا لأجراً..)[٦٥].

فوافق الفرعون، وزادهم :

(.. نعم وإنكم إذاً لمن المقربين) [٦٦].

فلما واجه (موسى) هؤلاء السحرة حذرهم من مغبة ما قد يقدمون عليه، فقال لهم : (ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى)[٦٧].

وهنا اختلف السحرة فيما بينهم : (فتنازعوا أمرهم بينهم) [٦٨]، ويفسر (ابن كثير) "الأمر الذي تنازعوه بينهم"، فيقول : " قيل : معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقائلٌ يقول هذا كلام نبي وليس بساحر، وقائل بل هو ساحر، فالله أعلم، وأسروا التناجي بهذا وغيره "[٦٩].

كان هذا إذن موقف السحرة المصريين من (موسى)، بعد أن سمعوا منه تحذيراً بسيطاً، وهو موقف مغاير لموقف حاكمهم الأجنبي، الذي لم يفلح (موسى) بكل ما أتاه من بينات على حمله على مجرد التفكير فيما يقول.. أما المصريون، فقد رأى بعضهم– بعد بضع كلمات – أن الرجل ليس ساحراً، بل ذهبوا إلى أنه قد يكون نبياً.

كان ذلك قبل أن يُلقي (موسى) بعصاه فتستحيل ثعباناً يلتهم ثعابينهم، وما أن رأوا ذلك، أجمعوا كلهم في الحال على موقف مناقض لموقف حاكم بلادهم، فجهروا بإيمانهم برب (موسى)، وقالوا : (آمنا برب العالمين) [٧٠].

حتى.. إذ هددهم الملك بالصلب، لم يخشوه فهم يؤمنون "بحياة أخرى"، وبأن الله سيبعثهم ليجازيهم بما فعلوا، وهو ما يتسق مع دينهم المصري ويخالف ما يؤمن به الحاكم الغريب، فقالوا : (إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا إنا كنا أول المؤمنين) [٧١].

ويكشف المصريون ما ضمره هذا الحاكم، ويسبرون غوره : (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) [٧٢].

حتى عندما نفذ الحاكم وعيده : " فقطعهم وقتلهم"[٧٣]، صار هؤلاء المصريون المؤمنون يقولون : (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) [٧٤].

لم يخرج موقف السحرة المصريين بحالٍ من الأحوال عن أسس ومباديء الدين المصري، فهم مصريون قلباً وقالباً، ديناً ودنيا، أكرههم هذا الفرعون البدوي وأغراهم، ولكنهم سرعان ما ثابوا إلى رشدهم فأعلنوا تمسكهم بدينهم، في مواجهة حاكم غريب على دينٍ آخر.

وهاهم يكشفون عن جوهر إيمانهم الراسخ ودينهم العريق، فيقولون للحاكم الهكسوسي : (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خيرٌ وأبقى. إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا. ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى. جنات عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) [٧٥].

صدق الله العظيم

obeikandl.com

الخروج

وتنتهي إقامة بني إسرائيل في مصر بخروجهم منها هاربين، يلاحقهم الفرعون ورجاله.

ويصور "سفر الخروج" بالتوراة هذا الفصل الختامي في مشاهد مثيرة : " ثم قال الرب لـ(موسى) ضربة واحدةً أيضاً أجلب على فرعون وعلى مصر. بعد ذلك يطلقكم من هنا. وعندما يطلقكم يطردكم طرداً من هنا بالتمام"[٧٦].

" فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم "[٧٧].

" فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذي في السجن وكل بكر بهيمة "[٧٨].

" فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد "[٧٩].

"فلما أُخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون"[٨٠].

" فشد مركبته وأخذ قومه معه. وأخذ ست مئة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنوداً مركبية على جميعها"[٨١].

في ظل هذه الأحداث المتلاحقة، لابد أن نتوقف من أجل تسجيل بعض النقاط الهامة :

أولاً : زيف هذا العدد الضخم لبني إسرائيل، الذين لم يزد عددهم حين دخلوا مصر على "سبعين نفساً"، كما قالوا هم في توراتهم، فكيف صار هؤلاء ٦٠٠ ألف رجل "ماعدا الأولاد ".

إنه الكذب، الذي يتمون ما بدأوا به، حين زعموا على لسان حاكم مصر "المزعوم" أن شعب إسرائيل "أكثر وأعظم" من شعب مصر.

ثانياً : استعمال الفرعون وجنوده للمركبات، أي العجلات الحربية، في مطاردة بني إسرائيل يؤكد أن هذا الحاكم هكسوسي، فهذه العجلات الحربية كانت سلاح الهكسوس الذي لم يكن يعرفه المصريون حينذاك.

ثالثاً : يضاف إلى ذلك ما يدل على ضعة وخسة هؤلاء القوم، وما يؤكد في نفس الوقت على كرم المصريين، ومسالمتهم لبني إسرائيل، فلم يكن المصريون طرفاً في معركة دارت بين الإسرائيليين وبين حكام البلاد الغرباء. ففي خضم هذه الساعات العصيبة، التي سبقت خروجهم من مصر، لم يفتهم أن يحتالوا على أهل مصر ويسرقوهم، بناءً على أمر ربهم، الذي قال لـ(موسى) : " تكلم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجلٍ من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب"[٨٢].

" وفعل بنو إسرائيل بحسب قول (موسى)، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب، وثياباً، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين "[٨٣].

وبعد أن خرج الملك خلف الإسرائيليين، أخذ يجد في سعيه حتى أوشك أن يلحق بهم، ففزع هؤلاء وخافوا، فأخذوا يلومون (موسى) على إخراجه لهم من مصر : " وقالوا لـ(موسى) هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر. أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين. لأنه خيرٌ لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية "[٨٤].

" فقال الرب لـ(موسى) مالك تصرخ إلي. قل لبني إسرائيل أن يرحلوا. وأرفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه. فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة. وها أنا أشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم "[٨٥]. " ومد (موسى) يده على البحر. فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم"[٨٦].

وكانت النهاية .. فما أن اجتاز بنو إسرائيل البحر حتى عادت مياهه إلى حالها السابقة، فأطبقت على الفرعون ورجاله فغرقوا جميعاً، وهو ما ينص عليه

القرآن : (فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً) [٨٧].
وكذلك : (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) [٨٨].
كانت هذه هي نهاية أحداث قصة بني إسرائيل في مصر، وهي تمثل – في رأينا – حلقة من حلقات صراع دار بين قبائل رعوية، كان منها من استطاع فرض سيطرته على آخرين لحينٍ من زمن.
ويبدو أن حالة الصراع والتنازع بين هؤلاء قد مهدت السبيل أمام الأمير المصري (أحمس) للقضاء على الجميع قضاءً مبرماً، وحرر البلاد المصرية من استعمارهم البغيض، ومحق كل أثر لهم على هذه الأرض الطيبة.
ولا يسعنا في النهاية إلا أن نردد ما جاء في القرآن الكريم : (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) [٨٩].

obeikandl.com

بين الدين المصري والتوراة

عرفنا من التوراة أن "أسرة (يعقوب)" [بنو إسرائيل] جاءت مصر لا تملك ما يقيم أودها، فلولا مصر ولولا خيرها لهشمت الريح عظامهم اليابسة، وذرتهم رمالاً في صحراءهم.

وقصت علينا التوراة أنهم لما خرجوا.. ندموا.. فلم تنسهم الأيام جوعهم، وإن كان – سرعان – ما نسوا تعاليم (موسى)، وفضلوا عليها "قدور اللحم"، فتمنوا العوة إليها وإلى خدمة المصريين.

وأخبرتنا التوراة أن هؤلاء جاءونا خلواً من كل سبب حضارة.. بدواً لا يحسنون سوى رعي البهائم. ولم يفلح كرم المصريين في تهذيب طبعهم الذي لا ينفر من السلب، "فسلبوا المصريين" أمتعة الفضة والذهب والثياب، وهو سلوك يتسق مع شريعتهم. لذا لم يجد كاتب التوراة غضاضة في تدوين هذه السرقة، وإن كان سكت عن سرقة أهم وأعظم، سرقة حضارة وثقافة من أحسنوا إليهم.

إن ما قدمناه على صفحات سابقة لم نقصد به إعلاء شأن مصر أو إبراز دورها.. بل قصدنا توضيح أمور حرص هؤلاء على إبقائها غامضة، أما ما نورده على صفحات قليلة تالية فلا نريده دليلاً على أن ما تاجروا به آلاف السنين هو "بضاعتنا" نحن، بل كل ما نبغيه هو فقط إعمال المثل المصري القائل بأن "اللص بما يحمله" وهم مازالوا يحملون ما سرقوا.

يحكي (جيمس هنري برستيد) الواقعة التالية : " كنت قائماً لأول مرة بين الدمن الضئيلة الباقية في قصر (كورش) الأكبر، وهو واقع على مسيرة أقل من نصف ساعة من قبره في "بازار جادة"، ولم يبق من هذا المبنى، الذي كاد أن يختفي، إلا عمود مربع أو عمودان من الأحجار، كانا لا يزالان قائمين، منقوشاً عليهما بالخط المسماري باللغة الفارسية القديمة العبارة الموجزة الآتية : " أنا كورش" " قد أقمته"، وأحد هذين العمودين عبارة عن قائمة باب، ولا يزال ظاهراً فوقه نقش بارز يمثل صورة إنسان طويل القامة – في شكل أحد أنصاف الآلهة، له زوجان من الأجنحة المنتشرة في وضع رائع، كأنه واحد من سلالة الملائكة المذكورين في التوراة. وقد عرفت فيه نقشاً رأيته من قبل في بعض المطبوعات، غير أني عندما حققت النظر بدقة فيما كان متآكلاً من النقش، ظهر لي في الحال شيء لم يسبق أن جذب نظري من قبل قط. ذلك أن رأس تلك الصورة المجنحة كان يعلوها تاج "أوزير"، إله الحساب المصري في عالم

الأخرة عند قدماء المصريين. ولمثل هذا الرمز أهمية في الفن الشرقي القديم. فهذا النذر (بحساب الأخرة) ذو الجناحين بقى قائماً في قصر كورش نحو ٢٥٠٠ سنة، وكل زائر دخل القصر كان يشاهده لابساً تاج الحساب لعالم الأخرة، عند قدماء المصريين، وعلى ذلك يكاد يكون من الأمور التي لاشك فيها أن المحاكمة الزرداشتية في الأخرة مأخوذة عن المصريين القدماء "[٩٠].

ثم يؤكد (برستيد) على هذا الأمر مرة أخرى، فيقول : " وإن ظهور فكرة الحساب في الأخرة – وهو شيء لم يُعرف في آسيا الغربية قبل (زرادشت) – قد أوجد نظرية قوية أن (زرادشت) قد أخذ الكثير من ديانته عن الديانة المصرية "[٩١].

ويضيف (برستيد) : " وقد اتصل العبرانيون خلال أسرهم في الشرق – وهم في مرحلة متأخرة من مراحل تقدمهم الديني – اتصالاً وثيقاً بالمدنية الفارسية، ووقفوا على الكثير من ديانة (زرادشت) "[٩٢].

وقبل "أسرهم في الشرق"، كان هؤلاء قد اغتصبوا فلسطين [أرض كنعان]، وأقاموا "دويلة". كان الكنعانيون قد أقاموا مجتمعاً متحضراً قبل ألف سنة من غزو العبرانيين لبلادهم[٩٣].

يقول (جان بوتيرو) : " إن بني إسرائيل حلوا محل الكنعانيين، فتبنوا طريقة حياتهم دون تغيير يذكر ". ثم يضيف (بوتيرو) : "أخذ بنو إسرائيل كل شيء، وتعلموا كل شيء عن الكنعانيين"[٩٤].

وقبل اغتصاب الإسرائيليين لأرض كنعان [فلسطين] بألفي عام، كانت هذه البلاد تخضع للنفوذ المصري، بل أنها ظلت تحت السيطرة المصرية لمدة مائتي سنة بعد دخول بني إسرائيل إليها[٩٥].

ولنتم الحلقة بقول (برستيد) : " وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلتها فيها مصر. فلما غزاها العبرانيون كانت صُبغت مراراً وتكراراً بالعناصر المصرية ". ثم يضيف : " فإن التفكير الديني عند هؤلاء القوم [يعني الإسرائيليين]، الذين سكنوا فلسطين، اعتمد جوهره في هذه الحالة – كما اعتمد في تجارب كثيرة مشابهة لها – على الاستقاء من تراث الماضي، كما وجدوه في الجماعات الكنعانية التي اندمجوا فيها تدريجياً. وكان هذا التراث مفعماً بالأفكار المصرية القديمة "[٩٦].

ولنضرب بعض الأمثال على "ما استقى" هؤلاء "من تراث مفعم بالأفكار المصرية "، فالوصايا العشر لا تختلف عما جاء بما يسمى بـ"الإنكار" في كتاب الموتى المصري. فمن هذه الوصايا : " أكرم أباك وأمك، "لا تقتل"، "لا تزن"، "لا تسرق"، "لا تشهد على قريبك شهادة زور"، "لا تشته قريبك"، "لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته"[٩٧].

وفي كتاب الموتى نقرأ : " إني لم أسرق، لم أقتل، لم أنطق بالأكاذيب، لم أرتكب الزنى، لم أغرر بزوجة رجل، لم أقهر أحداً من أفراد عائلتي "[٩٨]. هذا وغيره ما يشهد به أيضاً مؤلفو معجم الحضارة المصرية إذ يقولون : " لا شك أن إقامة بني إسرائيل في مصر تفسر بعض العناصر القانونية والدينية في القاموس الموسوي".

ويضيفون : " عرفت تراتيلهم [أي المصريين] وأدب حكمتهم في كنعان، منذ الدولة الحديثة، وعلمت علماء (يهوذا) كيف ينظمون تراتيل أفضل لإلاههم، وكيف يزيدون في حكمة التوراة "[٩٩].

كما جاء في التوراة أيضاً أن (موسى) قد تفقه كل حكمة المصريين، وعلى الرغم من ذلك يزعم كاتب التوراة أن حكمة (سليمان) قد فاقت : ".. حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر "[١٠٠].

مع أن (سليمان) نفسه لا يجد وصفاً لمحبوبته أفضل من أنها فرس في مركبة ملك مصر : " لقد شبهتك يا حبيبتي بفرسٍ في مركبات فرعون "[١٠١].

ولـ(سليمان) كتاب في التوراة يعرف باسم سفر الأمثال، الذي نقرأ عنه في معجم الحضارة المصرية : " إن سفر الأمثال في التوراة ليستعير عدة عبارات من هذا المؤلف [المصري]، ولا يدهشنا هذا، إذ أن القوانين الأخلاقية، التي نشأت على ضفاف النيل، انتشرت في جميع بلاد الشرق الأدنى ".

والمؤلف هنا ليس سوى الحكيم المصري (أمنموبي)، وعن أعماله الأدبية يقول (ياروسلاف تشرني) : " وهناك أجزاء من الأعمال المتأخرة من هذا الفرع من الأدب، المسماة تعاليم (أمنموبي)، والتي صيغت في عصر الأسرتين العشرين والواحد والعشرين، يبدو أنها وجدت طريقها في شكل محرف إلى أمثال (PROVERBS) العهد القديم". ثم يضيف في هامش كتابه : " وفي الواقع أن سفر الأمثال قد استعار الكثير من أمثاله "[١٠٢].

ولنضع الآن أمثال (سليمان) أمام أمثال (أمنموبي) :

أمثال (سليمان)	أمثال (أمنموبي)
أمل أذنيك واسمع كلام الحكماء ووجه قلبك إلى معرفتي.	أمل أذنيك واسمع كلامي ووجه قلبك إلى فهمها.
لأنه حسن إن حفظتها في جوفك إن ثبتت جميعاً على شفتيك.	لأنه مفيدٌ أن حفظتها في جوفك واجعلها مستقرة في صندوق جوفك.
ألم أكتب لك ثلاثين فصلاً من جهة مؤامرة ومعرفة لأعلمك قسط كلام الحق لترد جواب الحق للذين أرسلوك.	تبصر لنفسك هذه الثلاثين فصلاً فإنها مسيرة وتعليم معرفة كيفية تجيب الذي يتحدث وكيف ترد على تقرير لمن أرسلت.
لا تسلب الفقير لكونه فقيراً ولا تسحق المسكين في الباب.	احذر أن تسلب الفقير وأن تظلم المحزون.
لا تستصحب رجلاً غضوباً ومع رجل ساخط لا تجيء. لا تنقل التخم القديم.	لا تستصحب غضوباً. لا تنقل العلامات من تخوم الحقول ولا تكن شرهاً نحو ذراع من أرض ولا تعتد على حدود أرملة.
أرأيت رجلاً مجتهداً في عمله أمام الملوك يقف.	إن الكاتب الماهر في وظيفته يجد نفسه جديراً بأن يكون من رجال البلاط.
إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما هو أمامك تأملاً وضع سكيناً لحنجرتك.	لا تأكل خبزاً أمام عظيم ولا تكشف فاك أمامه. وإذا أشبعتك لقمة حرام فإنما هي لذة ريقك.

obeikandl.com

إن كنت شرهاً، لا تشته أطاييبه لأنها خبز أكاذيب.	انظر إلى الوعاء الذي أمامك وعليك أن تجعله يكفيك.
لا تتعب لتصير غنياً.	لا تتعب طلباً للمزيد إذا كفيت لحاجتك.
كف عن فطنتك.	فإذا جُلب إليك بالسرقة لم يبت معك، وفي الفجر لا يكون في بيتك.
هل تطير عينيك نحوه وليس هو، لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء.	انظر مكانه وليس هناك لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالأوز يطير نحو السماء(١٠٣).

وكما حذر (أمنموبي) المصري من "الكسب الحرام" والإثراء عن طريق السرقة، حرم أيضاً الغش، فقال : " حذار أن تغش الوادج (مكيال الحبوب)، أو أن تغش في أجزاءها، فلا تكيل بمكيالين"(١٠٤).

وهو ما جاء أيضاً في التوراة : " إن ميزانين ومكياليين كليهما يغضب يهوا"(١٠٥).

أما ما جاء في المزامير بالتوراة، فلا يختلف أيضاً عن أناشيد الملك المصري (إخناتون)، صاحب أكبر ثورة دينية.

oberkampf.com

أناشيد (إخناتون)	المزامير
وحينما تغيب في أفق السماء الغربي فإن الأرض تظلم كالموات فيناموا في حجراتهم و رؤوسهم ملفوفة ومعاطسهم مسدودة ولا يرى إنسان الأخر في حين أمتعتهم تسرق وهي تحت رؤوسهم وهم لا يشعرون بذلك	تجعل ظلمة فيكون ليل فيه يدب كل حيوان وعر (المزمور ١٠٤ – ٢٠)
وكل أسد يخرج من عرينه (ليفترس) وكل الثعابين تنساب لتلدغ والظلام يخيم والعالم في صمت في حين أن الذي خلقهم في أفقه	الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها (المزمور ١٠٤ – ٢١)
الأرض زاهية حينما تشرق في الأفق وعندما تضيء بالنهار مثل "أتون" فإنك تقصي الظلمة إلى بعيد وحينما ترسل أشعتك تصير الأرض (مصر) في عيد والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم عند إيقاظك لهم وبعد غسلهم لأجسامهم يلبسون ثيابهم ثم يرفعون أذرعتهم تعبداً لطلعتك ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم في كل العالم	تشرق الشمس فتجتمع وفي مأويها تربض الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء (المزمور ١٠٤ – ٢٢ و٢٣)
والسفن تقلع في النهر صاعدة أو منحدرة فيه على السواء وكل فج مفتوح لأنك أشرقت	هذا البحر الكبير الواسع الأطراف هناك دبابات بلا عدد

obeikandl.com

والسمك يثب في النهر أمامك
وأشعتك تنفذ إلى وسط البحر
الأخضر العظيم.

ما أكثر تعدد أعمالك
إنها على الناس خافية
يا أيها الإله الأحد

صغار حيوان مع كبار
هناك تجري السفن. لوياثان
هذا خلقته ليلعب فيه
(المزمور ١٠٤ – ٢٥ – ٢٦)

ما أعظم أعمالك يا رب
كلها بحكمة صنعت
ملآنة الأرض من غناك
(المزمور ١٠٤ – ٢٤)

وقد رمز (إخناتون) إلى هذا الإله الأحد [كما يخاطبه] بقرص الشمس المتوهج، الذي تخرج منه أشعة تنتهي بأياد.

وكلنا نعرف ما للشمس من فضلٍ وأثر في الأرض، وفي كل أوجه الحياة على الأرض، فبدون الشمس تتوقف الحياة تماماً، فلا يوجد ليل أو نهار أو نور أو حرارة ولا يوم أو ساعة ولا ماء أو نبات.. فالشمس هي الحياة.

وقد وضع المصريون الشمس في المكانة التي تستحقها، ورفعوها إلى أسمى المراتب، بعدما أدركوا قيمتها.

وقد جاء في التوراة، وفي إصحاح "ملاخي" : " ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها.. "[١٠٧].

إن مثل هذه "الشمس ذات الأجنحة" لم يعرفها العبرانيون، ولم توجد عندهم صورة واحدة، وعلى النقيض من ذلك، نرى الشمس بجناحيها أينما خطونا على أرض مصر، فهذه الصورة بهذا الوصف تملأ معابد مصر ومقابرها. وانتقل هذا التصور المصري لرب الشمس على أرض فلسطين، حيث عُثر هناك على آثار الشمس المصرية[١٠٨].

ومن الرموز المصرية الشهيرة التي عبدها اليهود، كان الثعبان المصري، فتنسب التوراة إلى (موسى) أنه صنع لبني إسرائيل حية ليعبدوها، فظل هؤلاء على عبادتهم للثعبان المصري طيلة خمسة قرون بعد (موسى)، على حد قول كاتب التوراة[١٠٩].

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن هؤلاء أخذوا أيضاً عن المصريين عادات كثيرة، مثل الختان، كما ذكرنا سلفاً، وكذلك الغسل والتطهر، وتصعيد ذبائح القربان بالحريق[١١٠].

وكذلك تحريم أكل لحم الخنزير[١١١].

وإذا كان لابد من ختام فلا يسعنا في هذا المقام سوى ترديد قول الدكتور (عبد المحسن الخشاب) :

" فما كان لليهود حضارة ولا أدب إلا حضارة مصر، ولا حكمة إلا حكمة مصر، ولا دين دانوا به قبل اليهودية إلا دين مصر، نقلوه معهم، وارتدوا إليه بعد أن أدانوا باليهودية "[١١٢].

obeikandl.com

الهوامش

١ – سفر التكوين، الإصحاح (٤٧) آية (٣).
٢ – المرجع السابق، الإصحاح (٤٧) آية (٥) و(٦).
٣ – المرجع السابق، الإصحاح (٤٧) آية (١١).
٤ – سفر الخروج، الإصحاح (١) آية (٨) و(٩).
٥ – سورة القصص آية (٤).
٦ - سفر الخروج، الإصحاح (١) آية (١٠).
٧ – المرجع السابق الإصحاح (١) آية (١٤).
٨ - المرجع السابق الإصحاح (١) آية (١٥).
٩ - المرجع السابق الإصحاح (١) آية (١٦).
١٠ - المرجع السابق الإصحاح (٢) آية (١).
١١ - المرجع السابق الإصحاح (٢) آية (٢).
١٢ – سورة القصص آية (٧).
١٣ – سفر الخروج الإصحاح (٢) آية (٥).
١٤ – المرجع السابق الإصحاح (٢) آية (٦).
١٥ – سورة القصص آية (٩).
١٦ - سفر الخروج الإصحاح (٢) آية (١٠).
١٧ – فجر الضمير جيمس هنري برستيد
١٨ – مقارنة الأديان د.أحمد شلبي
١٩ – مصر في القرآن والسنة د.أحمد عبد الحميد يوسف
٢٠ – سورة القصص آية (٧٦).
٢١ – سورة الفجر آية (١٠).
٢٢ – آلهة المصريين والاس بدج
٢٣ – إنجيل يوحنا الإصحاح (٨) آية (٤٤).
٢٤ – تاريخ اليهود القديم بمصر د.عبد المحسن الخشاب
٢٥ – المرجع السابق.
٢٦ – سورة القصص، آية (١٤).
٢٧ - سفر الخروج، الإصحاح (٢) آية (١١) و(١٢).
٢٨ – المرجع السابق، الإصحاح (٢) آية (١٣).
٢٩ – سورة القصص آية (١٨).
٣٠ - سفر الخروج، الإصحاح (٢) آية (١٣) و(١٤).
٣١ – المرجع السابق، الإصحاح (٢) آية (١٥).
٣٢ – سورة القصص آية (٢٠).
٣٣ - سفر الخروج، الإصحاح (٢) آية (١٥).

obeikandl.com

٣٤ - المرجع السابق، الإصحاح (٢) آية (١٩).
٣٥ – قصص الأنبياء ابن كثير
٣٦ - سفر الخروج، الإصحاح (٤) آية (١٩).
٣٧ – قصص الأنبياء ابن كثير
٣٨ – سورة القصص آية (٣٠).
٣٩ - سفر الخروج، الإصحاح (٣) آية (٥) و(٦).
٤٠ – سورة طه آيات (٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨).
٤١ – سورة مريم آية (٥٣).
٤٢ – سورة الشعراء آية (١٦) و(١٧).
٤٣ – المرجع السابق آية (١٨) و(١٩).
٤٤ – سورة القصص آية (١٥).
٤٥ – سورة طه آيات (٤٩ و٥٠ و٥١ و٥٢ و٥٣ و٥٤ و٥٥).
٤٦ – الحيـــاة اليوميـــة للآلهـــة ديمتري ميكس وكريستين فافار ميكس
الفرعونية
٤٧ – سورة القصص آية (٣٨).
٤٨ – مصر في القرآن والسنة د.أحمد عبدالحميد يوسف
٤٩ – سورة غافر آية (٢٧).
٥٠ – سورة القصص آية (٣٩).
٥١ – سورة غافر آية (٣٤).
٥٢ – جذورالحضارة المصرية د.إبراهيم يوسف الشتلة
٥٣ – مقارنة الأديان د.أحمد شلبي
٥٤ – فجر الضمير جيمس هنري برستيد
٥٥ – مقارنة الأديان د.أحمد شلبي
٥٦ – سفر الخروج الإصحاح (٧) آيات (٨ : ١٠).
٥٧ – سورة الأعراف آية (١٠٩).
٥٨ – سورة الشعراء آية (٣٦) وآية (٣٧).
٥٩- السحر عند الفراعنة محمد أبو رحمة
٦٠ – سفر الخروج الإصحاح (١٠) آية (٢١) و(٢٢).
٦١ - المرجع السابق الإصحاح (١٠) آية (١٥).
٦٢ – المرجع السابق الإصحاح (٩) آية (٢٣).
٦٣ - المرجع السابق الإصحاح (١٠) آية (٢٢) و(٢٣).
٦٤ – Libe und sexualiktaet ليزا مانيكه
im Alten Agypten
٦٥ – سورة الشعراء آية (٤١).
٦٦ – المرجع السابق آية (٤٢).

obeikandl.com

٦٧ – سورة طه آية (٦١).
٦٨ – المرجع السابق آية (٦٢).
٦٩ – قصص الأنبياء ابن كثير
٧٠ – سورة الشعراء آية (٤٧).
٧١ – المرجع السابق آية (٥٠) و(٥١).
٧٢ – سورة الأعراف آية (١٢٦).
٧٣ – الكامل في التاريخ ابن الأثير
٧٤ – سورة الأعراف آية (١٢٦).
٧٥ – سورة طه آيات (٧٢ و٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٦).
٧٦ – سفر الخروج الإصحاح (١١) آية (١).
٧٧ – المرجع السابق الإصحاح (١٢) آية (١٢).
٧٨ – المرجع السابق الإصحاح (١٢) آية (٢٩).
٧٩ – المرجع السابق الإصحاح (١٢) آية (٣٧).
٨٠ – المرجع السابق الإصحاح (١٤) آية (٥).
٨١ – المرجع السابق الإصحاح (١٤) آية (٦) و(٧).
٨٢ – المرجع السابق الإصحاح (١١) آية (٢).
٨٣ – المرجع السابق الإصحاح (١٢) آية (٣٤ : ٣٦).
٨٤ – المرجع السابق الإصحاح (١٤) آية (١١) وآية (١٢).
٨٥ – المرجع السابق الإصحاح (١٤) آية (١٥ : ١٧).
٨٦ – المرجع السابق الإصحاح (١٤) آية (٢١ : ٢٣).
٨٧ – سورة الإسراء آية (١٠٣).
٨٨ – سورة الزخرف آية (٥٥).
٨٩ – سورة الأعراف آية (١٣٧).
٩٠ – فجر الضمير جيمس هنري برستيد
٩١ – المرجع السابق.
٩٢ – المرجع السابق.
٩٣ – المرجع السابق.
٩٤ – ولادة إله جان بوتيرو
٩٥ – فجر الضمير جيمس هنري برستيد
٩٦ – المرجع السابق.
٩٧ – مقارنة الأديان د.أحمد شلبي
٩٨ – كتاب الموتى.
٩٩ – معجم الحضارة المصرية القديمة مجموعة من الباحثين
١٠٠ – الملوك الأول الإصحاح (٤) آية (٣٠).
١٠١ – نشيد الإنشاد الإصحاح (١) آية (٩).

obeikandi.com

١٠٢ – الديانة المصرية القديمة ياروسلاف تشرني
١٠٣ – فجر الضمير جيمس هنري برستيد
١٠٤ – تاريخ اليهود القديم بمصر د.عبد المحسن الخشاب
١٠٥ – المرجع السابق.
١٠٦ – فجر الضمير جيمس هنري برستيد
١٠٧ - سفر ملاخي الإصحاح (٤) آية (٢).
١٠٨ – فجر الضمير جيمس هنري برستيد
١٠٩ – الملوك الثاني الإصحاح (١٨) آية (٤).
١١٠ – فجر الضمير جيمس هنري برستيد
١١١ – هيرودوت يتحدث عن مصر ترجمة د.محمد صقر خفاجة
١١٢ – تاريخ اليهود القديم بمصر د.عبد المحسن الخشاب

obeikandl.com